البينية الثّقافية سؤال الهجنة والتّجاذب التذاوتي في نقد هومي بهابها

Interculturalism The question of hybridity and subjective attraction in the criticism of Homi Bhabha

د. دليلة زغودي[1]

المركز الجامعي مغنية – الجزائر-

البريد الإلكتروني:daliazegh1982@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/01/11 تاريخ القبول: 2021/03/01 تاريخ النشر: 2021/04/11

ملخص: يجترح هومي بهابها سبيله الخاص في الدراسات ما بعد الكولونيالية؛ حين يتخطى منظور التقابل والتضاد الثقافيين المخترق لتصورات النقد ما بعد الكولونيالي، كما تبلورت مع كتاب "الاستشراق" لإدوارد سعيد وهي تتجمد في سكونية التصنيف الثنائي: شرق/ غرب، مغفلةً تلك المنطقة البينية المنبثقة من هذا التقاطع ؛ أين تمارس الثقافات عاداتها القديمة في التداخل والتفاعل وفق منطق التفاوض، في غفلة من رقابة الأقطاب المتنافرة المنشغلة بالاصطراع، حيث تولد منطقة ثقافية "هجينة" تنتعش فيها سيروات التماهي والتذاوت من أثر الاحتكاك، مسفرة عن ظهور قيم "الترجمة الثقافية" و"الهجنة" و"الفرجاتالخلالية"و"التجاذب التذاوتي"... ومؤذنة ببزوغ "فضاء ثالث" تتقاطع فيه الحدود الثقافية والهوياتية، وتتنافذ.

يتخطى بهابها الخطاطات النظرية للخرائط الثقافية، ويلتفت إلى "الممارسات الأدائية" التي تنتجها سيرورة التاريخ، وتنبثق في لحظات التّحول الفارقة ؛ حيث تتشابك الاختلافات الثقافية المنذرة بتغيير المواضع وإعادة ترتيب الحدود، التي تخيّب غالبا أفق توقع التطور، وسننه المعتادة مشيعة جوّا من الغرابة التي تلازم تشكيل البدايات المجاوِزة.

الكلمات المفتاحية: البينية – التهجين - ما بعد الكولونيالية - الفضاء الثالث – الترجمة - التنوع الثقافي.

Abstract :

Homi Bhabha makes his own way into post-colonial studies, when he transcends the perspective of the penetrating cultural encounter and antagonism of post-colonial criticism perceptions, and crystallizes with Edward Said's "Orientalism" as it freezes in the squamous of binary classification: East/West, overlooking that inter-region emanating from this intersection; The old overlap and interaction according to the logic of negotiation, in the absence of the control of

[1] د. دليلة زغودي، daliazegh1982@gmail.com

the dissonant poles busy with artificiality, where it generates a "hybrid" cultural area in which the biographies of identification and taste recover from the effect of friction, resulting in the emergence of the values of "cultural translation", "hybridization", "interstitial vulvas" and "the attraction of the subjective"... It is authorized to emerge as a "third space" in which borders intersect and run out

HomiBhabha transcends the theoretical maps of cultural maps, turns to the "performing practices" produced by the process of history, and emerges in the moments of transformation, where cultural differences are intertwined, warning of changing positions and rearranging boundaries, which often disappoint the prospect of development, and its usual age, creating an atmosphere of strangeness that accompanies the formation of the beginnings of the encounter.

Key-words : Interlayer – Hybridization - post-colonial - Third Space - Translation - Cultural Diversity.

" أن توجد يعني أن تكون في علاقة مع آخرية ما" –هومي بهابها-

على سبيل التمهيد:

تمثّل ما بعد الكولونيالية "طريقة في النظر إلى القوة بين الثقافية والتحولات النفسية والاجتماعية التي تحدثها ديناميات الهيمنة والإخضاع المتوائمة والانزياح الجغرافي واللغوي، وهي لا تحاول أن تفسر كل الأشياء في هذه الدنيا بل تقتصر على هذه الظاهرة الواحدة المهملة، السيطرة على ثقافة معينة من قبل ثقافة أخرى" (روبنسون، 2006، صفحة 36).

أما النقد ما بعد الكولونيالي، فينبري لتفكيك النظم الثقافية الإمبريالية، ويتصدى بالنقد لمؤسسات القمع والتسلط. ولا ينبغي حمل السابقة" ما بعد"، المقترنة بالكولونيالية هنا، على دلالة التخطّي والتّجاوز الزمنية؛ المشيرة إلى التعاقب، والدّالة على التخلص من الاستعمار،مادامت آثار هذا الأخير الثقافية والسياسية الباقية تبطل هذه الدلالة ؛ وإنما تعني السعي الدؤوب إلى تصفية الاستعمار "فقد يكون الغربيون غادروا مستعمراتهم القديمة في أفريقيا وآسيا فيزيائيا، غير أنهم احتفظوا بها لا كأسواق فقط، بل أيضا كمواقع على الخريطة العقائدية التي استمروا يمارسون حكمها أخلاقيا وفكريا".إن العلاقات الكولونيالية لا تزال تشمل أنحاء الأرض كلها، وتمتد على طول التاريخ الإنساني.

1.هومي بهابها:HomiBhabha

هو أحد رؤوس الثالوث المقدس لما بعد الكولونيالية الأكثر تأثيرا في الدراسات النقدية المعاصرة؛ إلى جوار "إدوارد سعيد"، و"جياتريسبيفاك". وقد ولد هومي بهابها في 06 ماي 1949 بالعاصمة الهندية بومباي لعائلة من أقلية زرادشتية، درس في جامعة بومباي وواصل دراسته بلندن؛ أين حصل على الدكتوراه في الأدب الإنجليزي من جامعة أوكسفورد، ودرس في السنوات الممتدة من 1974 إلى 1994 بجامعات بريطانيا، انتقل بعدها إلى الولايات المتحدة ، التي لا يزال يشغل فيها منصب بروفيسور في الأدبين الإنجليزي والأمريكي بجامعة هارفارد منذ 2001 .بعد أن قضى فترة بجامعة شيكاغو .من أهم أعماله : موقع الثقافة (the location of culture) الصادر عام 1994.

تنسب لهابها نظرية كاملة في ما بعد الكولونيالية تتسم بالثراء والتعقيد، برزت فيها تأثيرات كل من"سعيد" و"فانون" و"لاكان"بشكل أساسي، إلى جوار تأثيرات "دريدا"، و"فوكو"، و"دولوز"، و"كريستيفا"...، تتقاطع، في أعماله وتلتقي، العديد من العلوم الإنسانية والاجتماعية؛ من دراسات مقارنة، وسياسة، وعلم اجتماع، وأنثروبولوجيا، وتحليل نفسي، وتاريخ، وجغرافيا وفلسفة...

أسّس مع عدد من المؤرخين الهنود ما يعرف "بدراسات التابع"؛ التي أخذت على عاتقها مهمة إعادة كتابة تاريخ الهند في ضوء السرديات الشفهية المنسية،المقصاة من قبل النخب الاستعمارية، وقد كان التاريخ الرسمي للهند مكتوبا بأقلام المؤرخين؛ صنيعة التكوين الاستعماري البريطاني.

انتشرت أعماله بشكل واسع، وحظيت بمقروئية عريضة، دارت حولها نقود وسجالات مهمة في الأوساط العلمية الإنسانية والاجتماعية، وترجمت إلى لغات كثيرة.يقول ثائر ديب: " أن تقرأ هومي بابا يعني أن تعيش تلك اللحظاتمن الغرابة المقلقة، على الحدود ما بين الثقافات والأمم والهويات والعوالم، في الممر الفاصل الواصل على الجسر، في منطقة "الهجنة والتجاذب" و"الانشطار" " في الفترة الزمنية الفاصلة" و"مالا يقبل الترجمة" في "الخفاء" و"العماء" و"ما لايدرك" وذلك كيما تستكشف أن هذه اللحظات والأمكنة ذاتها هي زمنيات وفضاءات المعرفة والإدراك وقابلية الترجمة، حيث يجري تفاوض الهوية وتنبع المقاومة وتدخل الجدةُ العالم". (بهابها، 2004، صفحة 09).

2.مرجعيات هومي بهابها الفكرية:

منح هومي بهابها من المصادر الفكرية ذاتها التي أرفدت النقد ما بعد الكولونيالي : على غرار: اللسانيات، والتحليل النفسي، والفلسفة، وعلم الاجتماع، والماركسية، والتفكيك، والتاريخ الجديد والتيار النسوي...إلا أنه

تفرد بانتقاءاته منها وبطريقة استثمارها على نحو نقدي، في ظل هيمنة واضحة لاستراتيجيات التفكيك وطغيان اصطلاحيتها على لغته، وتغلغلها في مشروعه الثقافي. فكانت نقاشاته، مثلا، لطروحات إدوارد سعيد حول ثنائية الغرب والشرق مدخلا لصوغ مفهوم "الفضاء الثالث" المزدوج؛ أين تشتبك الثقافتان المتقاطبتان وتتصارعان منتجتين منطقة ثقافية هجينة تحمل عناصر الثقافتين معا،نافية دعوى الصفاء والنقاء الثقافيين.

وتميز هومي بهابها بمعالقة مفاهيم التحليل النفسي بالمنظومة السياسية في مواجهة الخطاب الغربي الكولونيال يمقتفيا آثار فانون. فإذا كان حقل الدراسات ما بعد الكولونيالية قد ارتسم من خلال أعمال الطبيب النفساني الأنثيلي "فرانز فانون" Frantz Fanonبعمليه؛ "بشرة سوداء أقنعة بيضاء" (1952) و"معذبو الأرض" (1961) اللّذين عدّ فيهما العلاقة بين المستعمِر والمستعمَر حالة نفسية تستدعي أدوات تحليلية خاصة– وليست مجرد وضعية مادية-رابطا (وحيد، 2018، صفحة 31)، بذلك، بين التحليل النفسي والمنظومة السياسية، فإن بهابها قد تفرد عن مواطنيه، في مقاربة هذه النظرية بتركيزه- ضمن كتاب "بشرة سوداء" – على مقولات التشظي والانقسام المانوي في الفضاء الاستعماري واتخاذه وليجة للتهجين الثقافي ونفي الجوهرانية، وإقرار التذاوتا لهوياتي المتعالق. ناهيك عن إدراج الجسد كقيمة مركزية في السؤال الثقافي.

اتخذ هومي بهابها موقفا نقديا من الفكر الغربي، وتعرض بالنقاش لما يدعى بحقبة التنوير منه (القرن 18م بالخصوص) ؛ حين رأى أن لها يدا في صناعة الثقافة الاستعمارية وانتشار الإمبريالية، فضلا عن تكريس مقولة التفوق العرقي الغربي والفكر الطبقي التميزي؛ اللذين عانت منهما الشعوب الأخرى.

وطرح، باستنكار، ما ينطوي عليه فكر النخب المؤثرة إذ ذاك من مفارقة ، يكشفها تخليها عن موقفها الإنساني –وهو ما يميز خطها الفكري "إنساني التمركز" – إزاء الفعل الكولونيالي؛ فهذه النخب لم تكتف- من التواطؤ- بالصمت وتجاهل ممارسات النشاط الكولونيالي اللاإنسانية ، بل أسهمت كذلك فيخلق نوع من "السرديات الكبرى" المتخصصة في تزييف الوقائع المحلية للمستعمرات وتشويه الحقائق.

3.موقع الثقافة البيني:

يندرج طرح هومي بهابها النقدي ضمن سؤال "المابعد" (post) الذي لا يعنى بأساطير بزوغ الحداثة وأفولها، بقدر انهماره بإعادة "تحديد موقعها" ضمن رؤية ترصد أثر "الحوافّ" و"الهوامش" و"الأطراف" في إعادة صياغة مركز الحداثة من دون التورّط في وهم الهوية النقية أو الانغلاق في حلقة الأصولية الثقافية (بهابها، 2004، صفحة 10، 11)؛ و"موقع الثقافة اليوم لا يقع في لُباب نقيّ من التراث بل على حواف التّماس بين الحضارات حيث تنطلق بينية وهجنة وهويات جديدة" (بهابها، 2004، صفحة 11).إذ يتلاشى، في هذا الفضاء البيني، وهْمُ الانفصال والبعد والسلبية فـ" أن تكون في "المابعد" يعني أن تقطن فضاء بينيا مندخلا [...] أن تكون جزء من زمن إعادة

النظر، عودة إلى الحاضر لإعادة توصيف تعاصرنا الثقافي لإعادة نقش تشاركنا الإنساني التاريخي، ومسّ المستقبل في جانبه القريب" (بهابها، 2004، صفحة 52).

ويكون فضاء التداخل هذا؛ المنبجس من الشروخ والفرجات الخلالية، متّسما بالجدّة والابتكار، يخلق الطفرات والقطائع في متّصل الماضي والحاضر، ويضخّ روح الإبداع في الوجود (بهابها، 2004، صفحة 54)، منطلقا من النشاط النافي المكتنف بالغرابة؛ "التي تمثل شرطا للبدايات المتجاوزة للمناطق والمتعدية للثقافات" (بهابها، 2004، صفحة 55).

إنه منظور انتقادي للخط ما بعد الكولونيالي الذي رسمه إدوارد سعيد؛ حين عمد في كتاب "الاستشراق"(1978) إلى تفكيك بنيات الخطاب الكولونيالي القائم على معمار كامل من الثنائيات الثقافية والإثنية، والمستند إلى منظور قائم على التقابل والتّضاد .

فيما نظر بهابها إلى هذا الخطاب "كممارسة إنتاجية" تجسد مسارات التماهي المتذاوت، ولا تنحبس في التصنيفات النظرية الأولية المتوزعة على حدّي الثنائية: مهيمِن/ مهيمَن عليه، الذي يختصره التصور السّكوني للتقاطب شرق/ غرب؛ فما ينبغي رصده هو هذه "الفضاءات الثقافية البينية" الهجينة التي تنبثق في المنطقة الحدّية، أين تتداخل الثقافات وتتنافذ؛ في فعل أدائي يتملص من البرمجة الثنائية المنشطرة بين؛ الذات/والآخر، والسيد/والعبد، والداخل/والخارج، والشرق/والغرب، والماضي/ الحاضر والاشتمال/ المنافاة... وذات الأسس المتعينة سلفا والمتموقعة خارج التاريخ (بهابها، 2004، صفحة 11)، في عالم صارت فيه "ديموغرافيا الأممية الجديدة هي تاريخ الهجرة ما بعد الكولونيالية وسرديات الشتات الثقافي والسياسي، والانزياحات الاجتماعية الكبرى ...وشعرية المنفى ونثر اللاجئين السياسيين والاقتصاديين المتجهّم (بهابها، 2004، صفحة 48).

إن هذا السبيل يفضي إلى صعود مفاهيم بهابها حول **الهجنة والفرجات الخلالية، وموقع الثقافة، والترجمة الثقافية، والفضاء الثالث**....التي تلحّ على أن "الجديد على المستوى النظري والحاسم على المستوى السياسي هو الحاجة إلى المضي بالتفكير أبعد من سرديات الذاتيات الأصلية والبدئية والتركيز على تلك اللحظات أو السيرورات التي ينتجها الإفصاح عن الاختلافات الثقافية" (بهابها، 2004، صفحة 42)، ضمن أفق تاريخي يسجل أفول المقولات الكبرى التي أسندت الحداثة، ويلغي المركزيات التقليدية مسربلا عالم اليوم بحالة من السيولة وضياع المعنى (وحيد، 2018، صفحة 37).

يتكئ بهابها على أعمال فرانز فانون وتطبيقاته التحليلية النفسية في صياغة مفهومه عن "الهجنة "؛ منطلقا من مفهوم "التجاذب"(ambivalence) النفساني، ومن فكرة "الهوية المتجاذبة" لدى فانون بشكل خاص . حيث تجود الهجنة بإضافة (supplement) ضمن منطقة يفرزها ديالكتيك المبرمج والإضافي، وتتخذ هيئة

مقاومة لا تُرَدُّ؛ لأن "ما هو مبرمج يقوّض ذاته إذ يولّد هجنة عبر سعيه المحموم وراء النقاء" (بهابها، 2004، صفحة 15).

إن التواشج بين السياسي والنفسي في الوضعية الكولونيالية يقدم عينة ممتازة وتجسيدا نموذجيا لعملية الهجنة؛ التي تدلّ على انبثاق أشكال تثاقفية جديدة في منطقة الاحتكاك الاستعمارية بين المستعمِر والمستعمَر جرّاءاعتماد أحدهما على الآخر،في ظل منطق جدلي يُقحم تعيين الذات ضمن أشراط الآخرية، ويقرن التحديد الأنطولوجي بالاستلاب (وحيد، 2018، صفحة 39)، يكون فيه"الاستخدام المتجاذب لكلمة "مختلف" –بمعنى أن تكون مختلفا عن أولئك المختلفين بحيث تغدو مماثلا- هو المكان الذي يعبّر فيه اللاوعي عن شكل الآخرية، عن ذلك الظل المتشبث من الإرجاء والانزياح. فما يعطي الآخرية الكولونيالية صورتها –براعة ودهاء الإنسان الأبيض منقوشا على جسد الإنسان الأسود – ليست الذات المستعمِرة ولا الآخر المستعمَر، بل المسافة البينية المولدة للاضطراب ".

إن منطقة التجاذب، هذه، التي يحصّل الجسد منها سهمة بارزة، تشكل ما يدعوه بهابها بالفضاء الثالث للتعبير الذي لا يُمْحَض خالصا لأية جهة، وإنما يولّد منطقة مشتركة جديدة وغريبة تؤذن بأفول عصر التّعدد الثقافي المتحيز وميلاد فجر جديد تسوده الهجنة والترجمة الثقافية ويرين عليه الاختلاف (بهابها، 2004، صفحة 131) .يقول بهابها: "مما له مغزى أن القدرات الإنتاجية لهذا الفضاء الثالث لها أصل كولونيالي أو ما بعد كولونيالي. لأن الرغبة في النزول إلى هذه الأرض الغريبة... ربما تفتح الطريق لتصوّر ثقافة عالمية، مبنية ليس على غرائبية التعددية الثقافية أو تعددية الثقافات، ولكن على نقش هجنة الثقافة والتمفصل حولها."

3.من سردية الذاتيات الأصلية إلى سيرورات التذاوت والتهجين:

نشأ النقد ما بعد الكولونيالي في كنف التحليل النفسي، وتربى وسط هواجس السؤال عن الهوية الذي صدح به الطبيب الأنثيلي- الفرنسي الملوّن "فرانتز فانون"(fanon) ولخصها في "من هو الإنسان الزنجي؟" منطلقا من تجربة خاصة في تحنيط الصورة النمطية ضمن الممارسات والخطابات داخل الثقافة الكولونيالية. لذلك لا يمكن الفصل فيها بين السياسي والنفسي.

إن الهوية ليست شيئا ثابتا ومعطى نهائيا يؤوب إلى حكاية واقعية كبرى (وحيد، 2018، صفحة 56)، تدل على الإنجاز والتحقق، وإنما هي "سردية تاريخية مفتوحة"وممارسة ثقافية تتراكب فيها وتتقاطع الفضاءات والأزمنة التاريخية ومواقع الذات المتباينة (بهابها، 2004، صفحة 12)، وكان فانون قد **كشف في كتابه "بشرة سوداء،أقنعة بيضاء"** عن الطبيعة المزدوجة للهوية:حين ميّز **بين الهوية الشخصية** بوصفها حدسا بكينونة، وبين **تعيين الهوية** باعتبارها مشكلة تحليلية نفسية ....حيث تعمل هذه الهويات الثنائية المؤلفة من شقين، في

إطار الانعكاس النرجسي لـ **الواحد** في الآخر، ولا يمكن عدها نتاجا قبليا مكتملا مادامت تقوم على سيرورة من التعيين التحليلي النفسي للهوية.هي سيرورة متجاذبة (بهابها، 2004، صفحة 151)، تقتضي فضاء انشطاريا يوزّع صورة الكينونة المزدوجة على مكانين في آن (بهابها، 2004، صفحة 110).

ويوضّح بهابها الشروط الخطابية لسيرورة التعيين النفسي بمثال **الصورة** التي تتوضّع في موضع تعيين الهوية،إذ أنها تقع في منطقة تجاذب:بسبب انشطار تمثيلها مكانيا؛ فهي تحضر غائبا، فضلا عن إرجائه زمانيا؛ لكونها تمثيل لزمن آخر على الدوام يتخذ هيئة تكرارية.

وبذلك لا تعدو الصورة كونها أحد ملحقات (supplements) السلطة والهوية، ولا يمكن عدها مظهرا لواقع، إذ يغدو النفاذ إلى صورة الهوية مشروطا بنفي أي إحساس بالأصالة والكمال نظرا لأن هذه السيرورة من الانزياح والتباين (الغياب / الحضور، التمثيل/ التكرار) تجعل من صورة الهوية واقعا حديا قائما على عتبة الشعور. **حيث** "الصورة هي في آن معا ضرب من **الاستبدال الاستعاري**، أو ضرب من **وهم الحضور**، مثلما هي – بالقدر ذاته – ضرب من **الكناية**، **أو ضرب** من الدالول(signe) على غيابها وضياعها **إنه حد للمعنى والكينونة، حد للآخرية المتحولة ضمن الهوية"** (بهابها، 2004، صفحة 110).أما الإنكار الذي تواجه به الآخرية فهو اعتراف ضمني بأثر الآخر في تعيين الهوية (بهابها، 2004، صفحة 119).

مع ملاحظة أن "مسألة تعيين الهوية ليست أبدا مسألة تأكيد على هوية متعينة مسبقا ، ولا هي نبوءة تحقق ذاتها ...والحاجة إلى تعيين الهوية – أي الحاجة إلى أن تكون مقابلا لـ آخر- تقتضي تمثيل الذات في نظام الآخرية المولّد للتباين" (بهابها، 2004، صفحة 134). فلا يصبح الأمر متصلا بأنا مستعمَر وآخر مستعمِر، وإنما يرتبط بغيرية كولونيالية ترتسم من خلال الانعكاس المرآوي (اللاكاني) ؛ أين يبيّنالانعكاس " أن الآخر الحقيقي للرجل الأبيض، وسيبقى دوما ، هو الرجل الزنجي والعكس صحيح" (وحيد، 2018، صفحة 57).

عمل بهابها على تحويل مسألة ازدواجية الهويات الكولونيالية، التي كشف عنها فانون، إلى السياق ما بعد الكولونيالي بعد أن طورها في ضوء المنظور النفسي اللاكاني، واستثمرها في تشكيل محور نقدي اتجه به صوب بنية التمركز وعلاقتها بالآخر المهمّش مستغلا إياها في نظريته حول التماهي، "الذي لا ينشأ إلا في الفجوة بين التنصل والتعيّن" (بهابها، 2004، صفحة 58).

وهي مسألة تدور في فلك النظر أو ما يسميه بـ"التحديقة"، وتنشأ في تلك الفجوة بين المرئي واللامرئي الذي يتوارى خلف رؤيته ممثلا بالشتات الأسود وأبناء المستعمرات وقوافل الهجرة... وتنشأ في التخوم بين الإنكار والتحديد،حيث تتقاطع النظرة الفضولية لمعرفة الآخر مع الفعل اللغوي التمثيلي (بهابها، 2004، صفحة 118).

ويستدعي بهابها هنا صورة المرآة اللاكانية التي تتقاطع فيها النظرة باللغة ضمن تجاذب رغبة الذات في الآخر حيث "آخرية الهوية هي الحضور القلق في داخل الذات لنوع من التوتّر الوجودي الذي يظهر حين تنظر على نحو فيه مخاطرة في مرآة مغبشة" (بهابها، 2004، صفحة 115)، تستمد الرغبة في الآخر ازدواجيتها من بنية اللغة المزدوجة التي تموقع كلا من الذات والآخر في موقع افتراض متبادل (بهابها، 2004، صفحة 118).

قائمة المراجع:

1. بن بوعزيز وحيد. (2018). جدل الثقافة، مقالات في الآخرية والكولونيالية والديكولونيالية. الجزائر: ميم للنشر.
2. دوغلاس، روبنسون. (2006). الترجمة والإمبراطورية - الدراسات ما بعد الكولونيالية-.
3. سعيد إدوارد. (2014). الثقافة والإمبريالية. بيروت، لبنان: دار الآداب.
4. هومي بهابها. (2004). مقدمة ترجمة كتاب هومي بابا: موقع الثقافة. القاهرة، مصر: المركز القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة.